صناعة الحفريات

"تدوين تاريخ السُّلطة"

مصطفى السيد(*)، كريم الصياد(**)

"إن الشعوب لا تستخرج إرادتها من يد الغاصب لكي تضعها في متاحف التاريخ"

(ميثاق ٦٣)

أ. مقدمة:

هل قابلتَ التاريخ؟

يمكنني القول بأنني لم أقابله، ويمكنني أيضًا أن أقول أنني لم أقابل من يقول أنه قد قابله، ويمكنني الذهاب لأبعد من ذلك وأن أستخدم ثقتي المؤقتة في حواسّي وحواسّ الآخرين، وفي المفاهيم العلمية الشائعة لأن أتجرأ وأنفي وجوده(مثلًا).

لكن يمكنني القول بأنني قابلت مؤرخًا، هل قابلتَ مؤرخًا من قبل؟

إنهم يتكاثرون بأساليب لابد وأن تكون ناجحة جدًا، وإننا لو تركنا المسمى يتسع كما يهوى لربما وجدنا أن التأريخ صفة بشرية طيبة تمامًا وخاصة مع اتساع وسائل التعبير والتوصيل.

(*). كلية طب قصر العيني، السنة السادسة. mm_medicano@yahoo.com

(**). معيد بقسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة. Radical_kareem@yahoo.com

وبما أن التاريخ يبدو وهميًا من حيث وجوده، والمؤرخ يبدو حقيقيًا من الزاوية نفسها، فلعل المؤرخ هو العنصر القيم في المسألة التاريخية، والتاريخ هو العنصر المهمل فيها.

٢. منطقُ التدوين السلطويّ للتاريخ:

للأسف (وهو أسفٌ يخصّني) يمتلك المؤرخ طبيعة بشرية، والطبيعة البشرية ليس من السهل أن توصف بالبساطة اللازمة، أو بالموضوعية المنشودة، لأن الإنسان يمكن رسمه أحيانًا في شكل عدسة، بينما يصعب جدًا أن يُرسم كسطح مستوٍ شفاف، والعدسات قد تكون محدبة أو مقعرة ويمكن أن تتلون بألوان قد يُدهش تعددها.

وبما أن التاريخ (وهو عنصر وهمي) يعتبر عنصرًا هامًا من الناحية التاريخية(التي هي ناحية وهمية) فربما يُوضع موضع الاهتمام، خاصةً إنه قد يُعد جزءًا فعالًا من الإعلام(الوهمي جدًا والهامّ إلى حد كبير)وبما أن المؤرخ هو العنصر الموجود فعلًا فلابد للسلطة من أن تتحمل همّه، خاصةً أنها هي الأقدر تمامًا على كتابة التاريخ، لأنها تمتلك الورق في العادة !

وهكذا على سبيل المثال كانت شخصية مثل أحمد عرابي ملعونةً في العصر الملكي في مصر، إذ إنها هددت النظام القائم، ذلك النظام الذي وجد في لعنها والتعوذ منها رقيةً لبقائه، فانطلق(المؤرخ)عبده الحامولي أثناء هوجة عرابي الذي(كاد أن يحرق القطر المصري) في أغانيه التراثية الرائعة بين يدي مليك مصر المفدّى توفيق باشا، ثم وقف المؤرخ الكبير أحمد بك شوقي يستقبل

عرابي عند عوته من المنفى بقصيدته العصماء التي يقول في مطلعها "**صغيرٌ في الذهاب وفي الإيابِ..أهذا كل شأنك يا عرابي؟**".

كان النظام يتعوذ من تجربة التمرد العسكري ويرى فيها شيطانًا يستحق الرجم(لسببٍ آخر غير فشله)، ولكن عندما نجح التمرد العسكري في المرة الثانية، استقال عرابي من منصب الشيطان أخيرًا، إذ إن السلطة وجدت فيه إرهاصًا مبكرًا بحركتها المباركة، وأصبحت حياة عرابي صفحةً مجيدة من صفحات النضال الوطني ضد المليك الذي لم يعد مفدى بعد الآن، لقد وجدتْ السلطة من مباركته صلاةً لوجودها وبقائها، ولو رجعنا ببساطة إلى مناهج التعليم الأساسي مثلًا لوجدنا الهوجة تحولت إلى ثورة، وبين الهوجة والثورة يوجد شيء غير الواو، إنه-هذا الشيء- هو السلطة التي كانت في الحالتين تدافع عن نفسها.

٣. قراءة وطنية في ميثاق ٦٣:

"إن يوم ٢٣يوليو١٩٥٢ كان بداية مرحلة جديدة مجيدة من تاريخ النضال المتواصل للشعب العربي في مصر(!!؟) إن هذا الشعب في ذلك ليوم المجيد بدأ تجربة ثورية في جميع المجالات، وسط ظروف متناهية في صعوبتها وظلامها وأخطارها، فتمكن هذا الشعب بصدقه الثوري وبإرادة الثورة العنيدة فيه أن يغير حياته تغييرًا أساسيًا عميقًا في اتجاه آماله الإنسانية الواسعة"[1].

(1). الميثاق، مصلحة الاستعلامات، الجمهورية العربية المتحدة، ٢١ مايو ١٩٦٢م، د.ت، د.ط، ص٣.

بهـذا المقطع المثقل بالمجد والصدق والعمق يبدأ ميثاق الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٢ ليكون تمهيدًا للثورة التي قامت قبل صدوره بعشر سنوات، ولقوانين يوليو الاشتراكية التي سبقته بعام، والكتاب كما أراه يمتلك عمودًا فقريًا تاريخـيًا هامًا، فالوقائع التاريخية كما يراها الكتاب من وجهة نظره الذاتية في البابـين الأول والـثالث كانت هي المعطيات العلمية اللازمة لإثبات ضرورة الثورة في الباب الثاني، ذلك أنها"**هـي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها الأمة العـربية أن تخلص نفسها من الأغلال التي كبلتها، ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها، فإن عوامل القهر والاستغلال التي تحكمت فيها طويلًا، ونهبت ثرواتها لن تستسلم بالرضا**"(١).

هل يصلح التاريخ إذًا كثابت علمي لبناء نظرية؟ على كل حال وجد الكتاب أن الـتاريخ المصري الحديث يتماشى مع آرائه إلى حد كبير، فتفاعُل الكلّ مع الجـزء(دور مصر في العالم العربي) أصبح حقيقة ثابتة تؤكدها دراسة التاريخ الفرعونـي، ووقائع السيطرة الإغريقية والرومانية والفتح الإسلامي كذلك، ثم يصور الكتاب وقائع الفتح العثماني على هيئة ظلام يهبط على المنطقة بأسرها لأنها الوقائع التي أفرزت المعطيات التي يحاربها الكتاب.

ولـم تكـن الحملـة الفرنسية هي التي أيقظت الشعب المصري من الظلام العثمانـي، بل تمرد الشعب، أما محمد علي مؤسس الأسرة المالكة فبالرغم من

---

(1). السابق ص١٣

وجود شبه إجماع على أنه مؤسس مصر الحديثة إلا إنه"ساق مصر وراءه إلى **مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد متجاهلة مصالح الشعب**"[1].

ثم كان التدخل الأجنبي والسيطرة الاقتصادية ومشكلة قناة السويس، وكانت ثـورة عرابـي"**قمة رد الفعل الثوري**"[2]، ثم جاء الاحتلال البريطاني وإقطاع أسـرة محمد علي وأصدقائها ونضال مصطفى كامل-بغض النظر عن انتمائه العثماني الثابت تاريخيًا-وثورة ١٩ التي لابد وأن تكون قد فشلت لأنها لم تكن اشـتراكية أبدًا، ولأن قيادة الثورة على عكس قيادة ثورة يوليو لم تتنبه لاندفاع الـشعب المصري الثوري والكامن في صميم مفهومه الاجتماعي، كما أنها – بالتأكيد-لم تكن ديموقراطية[3].

إذًا فقـد قـدم الكتاب مبرراتٍ ليس من اللائق أن يتطرق إليها الشك، لأنها حقائـق لا تقل ثباتًا عن أبسط مسائل الحساب، وتكفي تمامًا لأن تصبح الثورة حدثًا حتميًا تمامًا.

يـستعرض الكـتاب بعـد ذلك ما تقدمه الثورة في المقابل من ديموقراطية اشـتراكية واقتـصاد اشتراكي عادل يضاد تمامًا كل ما عُرض تاريخيًا قبله. الكـتاب يقوم إذًا على التاريخ، فالتاريخ علة الثورة، وهو علة آرائها أيضًا في الـسياسة والاقتصاد، وهي علة لا تبدو وهمية على الإطلاق في نظر الكتاب، إنهـا سطح شفاف رائق يُنظر منه للتاريخ وهو يؤدي عرضه الأبدي دون أي

(1). السابق ص٢٣

(2). السابق ص ٢٥

(3). السابق ص ٢٧.

قابلية للتأويل، إن السلطة إذًا من خلال الميثاق لا تعترف كثيرًا بوهمية عنصر التاريخ في المسألة التاريخية، بل تراه عادةً حقيقيًا جدًا، وتراه كذلك أبًا شرعيًا لها، ورغم اضطلاعها بدور المؤرخ إلا أنها تقلل من إيجابيته(أي المؤرخ) في المسألة التاريخية وتعتبره سلبيًا تمامًا، وبذلك فإنها تؤكد إيجابية دورها السلطوي في الوقت نفسه الذي تؤكد فيه ضحالة الدور الأصيل للمؤرخ إذ يكتب التاريخ.

٤. قراءة غير وطنية في مناهج التاريخ:

إن التاريخ وهو العمود الفقري للأيديولوجيا الحاكمة لابد وأن يفكَّك ويركَّب ويُقام تبعًا لاتجاه وشكل ومركز ثقل هيكلها، وهو يجد فاعليته البنائية حين يتوغل إلى المدى الأعمق في لحم الحضارة من جهة، وإلى المدى الأسبق منها من جهةٍ أخرى، أي: المراحل الأولية والأساسية في تربية الشعوب، وإذا كان استطاع استعمال الإعلام من قبل، فليس بعسير عليه استعمال نظام التعليم ككل كبرنامج دعائي أكثر فاعلية حين يصل إلى ذلك المدى الأسبق المذكور أعلاه، إن الإعلام وسيلة دعاية أكثر جذبًا من التعليم، بل هو من أسباب انخفاض مجامع الكثير من الطلاب في الكثير من الأحيان، لكن الدعاية عن طريق المنهج الدراسي تحقق ما لا يحققه الإعلام أبدًا، ذلك لكون المنهج قديرًا على ارتداء الزي العلمي من جهة، ولكونه مادّة دراسية مدروسة ومحفوظة جملةً وتفصيلًا لدرجة خوض الاختبارات فيها من جهة ثانية، وبالطبع لكونه تأثيرًا على النهر من منبعه من جهةٍ ثالثة، أو في مرحلةٍ ثالثة أشد تأثيرًا وخطورة.

وعـند النظر من هذه الزاوية في مناهج التاريخ الحالية نجد ثلاث ظواهر أساسية:

١-التركيز على الجانب السياسي العسكري:

وهي أوضح الظواهر، فمناهج التاريخ في كل دول العالم لا تركز تقريبًا إلا علـى ذلـك الجانـب، فتاريخ الحضارة الإسلامية على سبيل المثال هو تاريخ الفـتوحات من جهة، وتاريخ قيام الدول والدويلات وانهيارها من جهة أخرى، وقد نفَذ الفيلسوف الإنجليزي النمسوي **كارل بوبر**(+١٩٩٤) إلى العمق السببي والإرادي لتلك الظاهرة من موقعه المستقر خارج حدود المشروعات التاريخانية الغـربية وغيـر الغـربية، فهو يرى أن(علم) التاريخ خرافة، فليس هناك أي عـرض موضـوعي للتاريخ يروي أحداثه كما وقعتْ بالفعل، فالناس يظنون- لأنهـم يـتعلمون في المدارس-أن تاريخ الجنس البشري ليس تاريخ الفن ولا تاريخ الشِّعر ولا تاريخ حمّى التيفوس ولا تاريخ العادات والتقاليد الاجتماعية، بـل هـو تاريخ القوة العسكرية، تاريخ الحروب والغزو وقيام الإمبراطوريات وسقوطها، ويُرجع بوبر ذلك إلى:

١- القوة العسكرية تؤثّر على عدد أكبر من الناس.

٢- الإنسان يعبد القوة، وهذه أقبح صفة فيه.

٣- القــوة السياسية العسكرية هي التي تملك زمام كل نواحي الحياة وبالتالي تملــك تــسجيل التاريخ، ومؤرخون كثيرون كتبوا فقط خضوعًا لأوامر الحكام[1].

ولمزيد من التوضيح لغرضنا وغرض بوبر من بحث هذه النقطة نقول أن هــذا الجانب هو ما يمكن بسهولة أن يتحوّل إلى سيرة ذاتية للسلطة الحاضرة، لكنه لا يُكمل ذلك التحول إلا بعد المرور بالمرحلتين التاليتين فيما يلي.

٢-تأويل بعض الأحداث التاريخية:

بعــد اختــزال الحضارة في جانبها السياسي العسكري تأتي مرحلة انتقاء أحداث بعينها من ذلك الجانب-باعتبارها نقاطًا ساخنة-لتأويلها، وذلك للاستفادة مــنها أو لاتقاء خطرها. مثل تأويل مشروع محمد علي التوسّعي، والذي ضمّ مــصر والــسودان والحجــاز والشام، ليصير مشروعًا عربيًا قوميًا في مقابل المــشروع الخلافي الإسلامي العثماني[٢]، وذلك تحت اصطلاح الدولة العربية، وهــو ما يخدم التوجه القومي ويصنع له الحفريات التاريخية، مثلما لجأ بعض العلمــاء الــتطوريون Evolutionists إلى تزييف حفريات تثبت صدق نظرية دارون في التطور، أو إلى صنع نماذج تخيلية توضح شكل الإنسان المنحدر من القرد توًا للدعاية للنظرية ذاتها فيما عُرف بإعادة البناء Reconstruction.

---

(1). بوبر: المجتمع المفتوح وأعداؤه، نقلًا عن يمنى طريف الخولي: فلسفة كارل بوبر، دون بيانات نشر، رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٩/٤٠٠٠.

(2). منهج التاريخ للصف الثاني والثالث الثانوي(٢٠٠٦-٢٠٠٧).

٣-تصوير الوضع القائم كنهاية للتاريخ:

فمناهج التاريخ تنتهي بالوضع القائم كخاتمة السعي الحضاري والشعبي، وليس فقط كخاتمة للمسار الزمني المسطح الساذج، ذلك بعد اختزال الحضارة في الجانب السياسي العسكري، وبعد تأويل بعض أحداثها، ليصير ذلك الفصل الأخير بمثابة نهاية للتاريخ في ثوب أكثر مكرًا وحربائيةً من الثوب الفلسفي المألوف في المذاهب التاريخانية Historicisms، بل يبدو النضال السابق بطوله تقريبًا بمثابة نضال إنساني واجتماعي عنيد وفدائي ولا يلين في سبيل الوصول إلى اللحظة الحاضرة التي ينتهي المنهج عندها.

وكما نرى في نهاية هذه الفقرة، فمنهج التاريخ آليةٌ متقدمة ناجحة في الأغلب لصنع الحفريات الزائفة، إنه مَنْهَجَةٌ للتاريخ أو مَذْهَبَةٌ له أكثر منه عرضًا موضوعيًا، وإن كان أكثر تشويقًا وجمالًا واتساقًا من أي عرضٍ موضوعيّ.

٥. كيف نفسخُ الميثاقَ دون أن نرسُب في امتحان التاريخ؟

سؤالٌ-ككل سؤال-يطرح نفسه، والإجابة عليه على قارعة الطريق، فالعقلانية النقدية وحدها هي القادرة على النظر بشكّ إلى الواجهات التاريخية البراقة، وبانوراما المعارك التخيلية-أو التي جعلها التصميم والعرض كذلك-دون افتراض البراءة على المستوى القيمي، أو الموضوعية على المستوى المعرفي، وربما كان انهيار النظام الناصري في مصر كالحلم، أو انهيار الحلم الناصري كالنظام، دافعًا قويًا للشك في المعطَى التاريخي الرسميّ.

لكن الشك بهذه الطريقة فحسب شكٌّ قيمي في الدوافع السابقة على الفعل، وليس شكًّا معرفيًا يؤسس لمعرفة علمية موضوعية واقعية، هذا النوع الثاني من الشك لا ينمو في النفس أو العقل إلا بعد استصلاح التربة الذهنية المعرفية، وذلك بإزالة رواسب اللامنهجية واللاعلمية واللاموضوعية، وبعد بذر بذور المعرفة المنهجية العلمية الموضوعية في المقابل، فتنمية الوعي الناقد القائم على أسس التفكير العلمي، ومشاهدة بانوراما قيام المناهج والمذاهب والنظريات وسقوطها في الفلسفة والعلوم الطبيعية، بدلًا من مشاهدة بانوراما الدول والحكومات في التاريخ هي المناخ المناسب لتربية وعي نقدي غير قابل للانخداع، برغم ارتفاع ثمن تذكرة البانوراما الفلسفية والعلمية، لكنها التذكرة في الوقت نفسه إلى تأسيس معرفة تاريخية لا تدّعي العلمية وبريئة النَّسَب من الدوافع الأيديولوجية.

٦. خاتمة:على الطريقة الكنطية:

نحن أمام صراع كليات جديد على الطريقة الكنطية، ليس بين اللاهوت والفلسفة كما كان في أوروبّا عصر التنوير، بل بين التاريخ من جهة، والفلسفة والعلوم من جهة أخرى كما يبدو في هذه النقطة من المكان والزمان والفكر، ومستقبلنا يبدو مرهونًا بحسم ذلك الصراع لصياغة ميثاق جديد وطني، يحفظ حق كل طرف في الموافقة أو عم الموافقة على بنوده، وحق تعديل تلك البنود، وحق مراجعتها والتحقق منها، فلا يوقّع في النهاية إلا بخطه، أو-على الأقل- ببصمته الخاصّة.